لسْنا فى عصر الجامعات !

أجملنا فى مقال الأسبوع الماضى بيان الدعوات إلى جامعات الأمم فى هذا العصر ، وهى الجامعات الآسيوية والإسلامية والعربية والطورانية والسلافية والجرمانية والأوربية والأمريكية .

ورأينا أن الفكرة فى جميع هذه الدعوات تبدأ بالثقافة أو العقيدة ثم يستخدمها الساسة لتغليب دولة على دول أخرى تجمع بينها روابط العنصر أو الدين أو الوحدة الإقليمية .

تسع دعوات إلى تسع جامعات فى عصر واحد ، ألا يدل ذلك على أننا فى عصر الجامعات ؟

أما الدلالة الظاهرة ، فنعم .

وأما الدلالة الباطنة ، أو الدلالة الصحيحة ، فلا .

ويكفى للتحقق من ذلك أن هذه الدعوات تحاول استئناف حالة ماضية ، وأنها على الرغم من اتساع نطاقها وشدة الإلحاح فيها لم تسفر عن قيام دولة واحدة من الدول المتحدة أو الاتحادية ، وليس فى طلائع المستقبل ما يؤذن بنجاح لها أعظم من النجاح الذى أصابته فى هذه الأيام وما قبلها .

لقد كانت الجامعات فيما مضى حقيقة قائمة بغير حاجة إلى دعوة أو تبشير بفكرة ، فظهرت فى التاريخ الدولة الإسلامية كما ظهرت الإمبراطورية المسيحية المقدسة ، ودان الناس فيها لسلطان واحد وعاصمة واحدة .

وكان مرحلة من مراحل التاريخ قبل مرحلة الوطنية ، ولم نعهد فى التاريخ الإنسانى أنه يعود إلى مرحلة تخطاها .

نعم إن الحوادث التاريخية تتكرر وتتشابه وهو ما يعبرون عنه بقولهم : إن التاريخ يعيد نفسه .

ولكن إعادة الحوادث غير إعادة المراحل فى حياة الجماعات أو فى حياة الآحاد .

فيتفق كثيرًا أن يمر بالإنسان الواحد حادث فى طفولته ثم يتكرر فى شبابه وشيخوخته ، ولكن لا يتفق أبدًا أن يعود الإنسان إلى مرحلة الرضاع بعد مرحلة التسنن ، أو إلى مرحلة المراهقة بعد اكتمال الشباب أو إلى مرحلة الفتوة بعد عهد المشيب ، فإذا عاد التاريخ بحادثه ولا يعيد مراحله ، والجامعات من المراحل التى مرت بها الشعوب الأوربية قبل مرحلة الأوطان ، فلم يكن الشعور بالوطن مانعًا لقيام الدولة الجامعة فى ظل الحاكم الأجنبى من بعض رعاياها ، ولكنه اليوم مانع لا يسهل التغلب عليه .

لقد مضى على الناس زمن طويل قبل « تكوين » الوطن بمعناه المعروف فى القرون الأخيرة .

فلم يكن من المستطاع قيام « الوطن » الواحد فى عصور الإقطاع ، لأن ولاء الإنسان للإقليم قد يفرق بين إقليمين متجاورين فى بقعة واحدة .

ولم يكن ثمة مناص من تطور الجامعات الدينية قبل الشعور بالغيرة الوطنية ، لأن الإنسان يرضى فى ظل الجامعة الدينية أن يحكمه الغريب عن بلده لاتفاق الرعاة والرعايا فى المذهب والعقيدة ، ولكنه لا يرضى بذلك بعد نشوء فكرة الأمة الواحدة والوطن الواحد ، وهى الفكرة التى نشأت على أثر انتهاء عهد الإقطاعات وعهد الجامعات .

وقد أشرنا إلى ذلك فى رسالتنا عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية فقلنا : « لما تطور عصر الإقطاع وعصر الجامعات الدينية معا أو على التعاقب من جيل وجيل قام من بعدهما سلطان الملوك المطلقين الذين ساعدتهم قوتهم المطلقة على قهر أمراء الإقطاعات والاستئثار بسلطان العرش وما يرتبط به من الدعاوى والحقوق ، فكانت قوتهم كفيلة لهم ببسط كلمتهم على رعاياهم وحصر فرائض الولاء فى أشخاصهم أو فى أسرتهم وكانت المملكة سابقة للأمة أو سابقة بطبيعة

الحال للحقوق التى تنشأ من الاعتراف للأمة بالسيادة على بلادها ، ولا يفهم الوطن على أنه بلاد « الأمة » ومناط سيادتها قبل أن تصبح الأمة مصدرًا للسلطان كله ويصبح الملك خادمًا للوطن ينوب عن الأمة فى تدبير مصالحها ، وقبل أن تتبع الطبقة الوسطى التى تضطلع بالحكم مع تقييد الملوك وزوال السادة الإقطاعيين ، وهذه هى العقيدة التى تمخضت عنها أطوار كثيرة من عصر النهضة إلى عصر الثورة الفرنسية ، ولم يكن قد توطد لها الأساس الذى تعلو عليه قبل تمام تلك الأطوار .

« ولقد كانت الأمة العربية أولى الأمم أن تنشأ فيها الوطنية بهذا المعنى الحديث قبل نشأتها فى أعقاب الثورة الفرنسية ، لأنها كانت تدين بأن الأرض لله وأن الملك خادم الشعب يحكمه باختباره قبل أن تتقرر هذه الآراء فى أمم الحضارة الغربية ، ولكن التاريخ لا يسبق أوانه ، ولا بد للجامعة الدينية من دور تجرى فيه وتبلغ مداه » .

قامت جامعات الأمم إذن يوم كان قيامها أمرًا واقعًا لا تحتاج إلى تبشير ولا يمنعه مانع .

أما اليوم فهى تحتاج إلى تبشير يكثر فيه الخداع والتضليل ، ويمنعها مانع قوى من اختلاف الأوطان والأمم واختلاف المصلحة والشعور ، فهى بالحيلة السياسية أشبه منها بالحقيقة الواقعة ، وليست أطوار الحياة الإنسانية مما يعالج بالاحتيال والتمويه .

فأكثر الدعوات التى تنادى بجامعات الأمم فى العصر الحاضر إنما هى ستار تتخذه دولة من الدول القوية لتحجب به مطامعها فى الدول الصغيرة ، وإنما هى حيلة للتغلب على غيرة الوطن وحقوق الحرية ، وهى من أجل هذا حركة مزيفة لا تفضى إلى نتيجة صحيحة ولن تستطيع بأية حال أن تعيد أمس الدابر وترجع بالتاريخ من استقبال الغد إلى استدباره فى وجهة الزمن الغابر .

ولسنا نعتقد أن الغد يبقى على جامعة واحدة تقوم على الطمع من إحدى الدول فى إدماج الدول الصغيرة والتسلط عليها ، وإنما تبقى الجامعات التى تتعاون على توحيد الثقافة أو توحيد المرافق العامة ، فإذا كانت مع هذا تتعاون

على دفع خطر واحد فقد يتساوى إذن أن تتفق فى العنصر واللغة والدين أو تختلف فيها جميعًا ، كما اتفقت فرنسا الكاثوليكية وإنجلترا الإنجيلية على ألمانيا التى تجمع بين الكثرة من الإنجيليين والقلة من أتباع الكنيسة الكاثوليكية ، أو كما اتفقت إيطاليا اللاتينية مع ألمانيا التيوتونية ، أو كما حدث اعتراف إيران وتركيا بحكومة إسرائيل مع وقوف الأمم العربية منها موقف العداء ، وكلهم على الملة مسلمون .

ولقد عرف التاريخ دولاً جامعة ثم عرف بعد ذلك دولاً مستقلة ، ثم عرف أحلافًا من الدول التى لا تجمع بينها وحدة غير وحدة التوازن فى علاقات الحرب والسلم ، ثم أخذنا فى الانتقال من هذه المرحلة إلى ما بعدها ، وهى المرحلة التى نحن فيها ولا نزال فى أوائلها ، ويمكن أن نسميها مرحلة التوفيق بين الوطنية والعالمية .

فمما لاشك فيه أن « العالمية » هى محور النزاع اليوم بين المعسكرين المتقابلين ، وفى كل معسكر منهما شعوب متعددة العناصر والعقائد واللغات ، ولكنها تريد أن تصبغ العالم كله بصبغة واحدة تغلب على كل صبغة فإما الشيوعية أو الديمقراطية ، وإما سلطان الدولة أو حرية الفرد ، وأصح من هذا أن نقول إن صراع المستقبل يدور على مبدأ الحرية الفردية ، وإن الغلبة فيه مقدورة منذ الساعة لمذهب وسط بين المذهبين المتطرفين ، وهو المذهب الذى يحفظ حرية الفرد مع تعميم المرافق وإحلال الدولة فى كثير منها محل الأفراد ، فينتهى فى وقت واحد عهد الاحتكار وعهد الحجر على حريات الإنسان .

وجملة القول أن عصر الجامعات التى تجور على حرية الأوطان قد انقضى بانقضاء مرحلته التاريخية وأن الدعوات الكثيرة إلى الجامعات المختلفة لا تدل على أننا فى عصر الجامعات ، بل لعلها هى الدليل على بطلان هذه الدعوات ، لأنها حيلة ومحاولة ، ولا يصطنع التاريخ بالحيل والمحاولات .

أصول الدعوة العنصرية

جاءنى خطاب مطول من صاحب التوقيع أقتبس منه ما يأتى :

« .. إننى أشتغل بتحضير بحث عن مؤسسة الأونسكو وعن الأمل فى نجاح سعيها والانتفاع بهذا السعى فى توحيد الثقافات العنصرية أو تعميمها ، وقد قرأت مقالاتكم عن الدعوات إلى جامعات الأمم ورأيكم فى نجاح الجامعات الثقافية دون الجامعات الحكومية ، وفيما أنا مهتم بمراجعة المصادر التى تناولت هذه المسألة اطلعت على عبارة وردت فى صدر كتاب الفلسفة الإسلامية لمؤلفه الدكتور إبراهيم مدكور يقول فيها ما نصه : « ومن الغريب أن الفرنسيين – خصوم العنصرية السياسية – هم الذين أثاروها شعواء فى القرن الماضى وبذروا بذورا عنصرية علمية وفلسفية امتدت بعض آثارها إلى القرن الحاضر . فقد صرح رينان أنه أول من قرر أن الجنس السامى دون الجنس الآرى ، وكان لرأيه وزنه فى فريق من معاصرية .. » .

فلم أفهم وجه الغرابة فى ظهور العنصرية بين الفرنسيين ، ولم أفهم كذلك معنى وصفه للفرنسيين بأنهم خصوم العنصرية السياسية ، فهل لكم أن تزيدونا بيانا فى هذا الموضوع ، إن كنتم قد فهمتم شيئا من كلام المؤلف المذكور .. إلخ إلخ .

س . ن

* * *

وأقول للفاضل صاحب الخطاب إن العبارة التى استوقفته فى كتاب الفلسفة الإسلامية قد استوقفتنى كذلك ، لأننى لا أعتقد أن الأستاذ مؤلف الكتاب قد أتى بتلك الكلمات من قبيل الحشو أو تزجية الكلام ولكنه استغرب ما استغربه لأنه لم يستقص أسباب الدعوة العنصرية بين الفرنسيين ، وقد كان استقصاؤها لازمًا له جد اللزوم فى موضوعه ، لأنه موضوع يقوم على إثبات الفلسفة الإسلامية وإنكار العوامل المزعومة التى يستند إليها رينان وأمثاله فى نفيهم لوجود الفلسفة عند المسلمين ، ولعل الأستاذ المؤلف كان يبطل العجب لو علم السبب ، أو كان يبدو له أن وصف الفرنسيين بعداوة العنصرية السياسية كلام خلو من المعنى مناقض للمعروف عن نشأة الدعوة العنصرية بين الأوربيين .

فالواقع أن اسم فرنسا نفسه مستمد من التمييز بين عنصر السادة الحاكمين وعنصر العبيد المحكومين .

فإن اسم فرنسا مستمد من اسم قبائل الفرانك Franks الذى أصبح علماً للحرية والأحرار ، لأنهم كانوا ينظرون إلى الشعب الأصيل فى تلك البلاد كما ينظر السادة إلى المستعبدين ، ولا تزال هذه الكلمة فى اللغات الأوربية مقترنة بمعنى الحرية والصراحة ومعنى الحقوق السياسية وحقوق الانتخاب Franchise وما إليها من مزايا الحكم والنيابة .

يقابلها فى اللغة العربية تعبيرنا بالنسب الحر الصراح عن نسب السادة الأحرار الذين سلمت دماؤهم من لوثة العبودية والهجنة أو الاختلاط فقد كان النسب الصراح مرادفا للنسب الحر أو نسب السادة فى كثير من اللغات .

أما إن كان المقصود بعداوة العنصرية السياسية أن الفرنسيين عادون الألمان ، وأن الألمان قد نشروا الدعوة العنصرية فى العهد الأخير فلا وجه هنا أيضا للغرابة ولا للقول بعداوة فرنسا للعنصرية السياسية .

فإن الألمان قد تلوا فلسفة العنصرية من علماء الفرنسيين ، وتعرف هذه الفلسفة أحيانًا باسم الجوبينزم Gobinism نسبة إلى العالم الفرنسى الذى أذاعها فى القرن التاسع عشر الكونت جوزيف آرثر دى جوبينو Gobineâu ،

وقد كان له فيها شريك من الفرنسيين أيضا هو الكونت جورج فاشر لابوجيه Lapougé صاحب كتاب الجنس الآرى ورسالته فى عالم الاجتماع .

أما قبل انتقال هذه الفلسفة من فرنسا إلى ألمانيا فقد كان المفكرون الألمانيون – وعلى رأسهم هردر وجيتى ونوفاليس – يسفهون آراء القائلين بالتفرقة بين الأجناس البيضاء والصفراء والسوداء ، وكان من مؤلفات ذلك العصر المعدودة كتاب هردر عن فلسفة الفوارق بين الأجناس البشرية ، وخلاصة رأيه فيه أنه « لا توجد أجناس أربعة أو خمسة كما يقال ، وأن الفوارق بينها ليست بالفوارق الحاسمة التى تدل على انفصال ، ولكنها تتداخل وتتقارب من جميع الألوان » .

فلما ظهر كتاب جوبينو فى فرنسا عن الفوارق بين الأجناس البشرية Inequality of Human Races شاعت منه دعوى المزايا الآرية ، وزعم المؤلف أنه يعتمد على أدلة التشريح للمفاضلة بين الآريين الساميين وغيرهم من الأجناس الأوربية والشرقية ، وأطلق على الجنس التيوتونى اسم طوال الرءوس Dolichocephalic تمييزا لهم من أصحاب الرءوس المستديرة ، وقال إن مزايا الحكم والسيادة طبيعة فى التيوتون لأنه هو نفسه ينتمى مع النبلاء الفرنسيين إلى قبائل الفرانك الجرمانيين الذين حكموا أبناء البلاد الأصلاء عدة قرون .

وقد ظهر فى الوقت نفسه – أى أواسط القرن التاسع عشر – مذهب رينان عن المفاضلة بين الجنس الآرى والجنس السامى وكان رينان وجوبينو زميلين فى الاستشراق يكتبان عن الفرس واليهود .

وقد راق الألمان أن يشيد الفرنسيون بعراقة أصولهم وامتياز جنسهم الجرمانى بالسيادة والحرية ، فتهافتوا على هذا المذهب ورددوه وأضافوا إليه ، ولم يكونوا مبدعين له ولا مهتمين بنشره قبل أن يجيئهم من قِبَل الفرنسيين على التخصيص .

على أن الباحثين فى العلل الطبيعية التى يرجع إليها رواج الدعوة العنصرية يحصرونها فى علل ثلاث كان لفرنسا خاصة من كل منها أوفى نصيب .

تلك العلل الثلاث هى كل تحرير الرقيق وحركة الاستعمار ومبادئ الثورة الفرنسية .

فالذين قاموا بالدعوة إلى تحرير الرقيق بنوا دعوتهم على المساواة بين البشر ، واستنكروا أن يباع الإنسان ويشترى فى الأسواق كأنه من الحيوان الأعجم وهو ومن يبيعه ويشتريه سواء فى الحقوق الآدمية .

فكان المتجرون بالرقيق يردون هذه الدعوى بإنكارهم للمساواة بين البيض والسود وقيام الفوارق الأصيلة بين السادة والعبيد ، وقد كانت لفرنسا تجارة واسعة فى الرقيق الأسود والخلاسيين ، وكانت جزائر هايتى التى كانت معروفة يومئذ باسم جزائر القديس دومنيك تابعة لفرنسا ومركزًا من أهم مراكز الاتجار بالرقيق على اختلاف أنواعه ، وظلت فرنسا تقاوم حركة التحرير حتى فى إبان الثورة الفرنسية ، ولم تشترك فى حركة التحرير إلا بعد خروج تلك الجزائر من حكمها وعودة نابليون من جزيرة « البا » فى سنة ١٨١٥ خلال حكومته المقتضبة التى اشتهرت باسم حكومة الأيام المائة ، فجاء هذا القرار اليائس بعد فوات الأوان .

ويعلم القراء أن حركة الاستعمار قامت على ما يسمونه برسالة الرجل الأبيض أو بحقه فى حكم الأجناس الأخرى لامتيازه عليها فى العقل والخلق والصفات النفسية ، وكانت فرنسا يومئذ تنشئ « إمبراطورية المستعمرات » ويؤيدها العلماء والأدباء ، ومنهم رينان على الخصوص ، فهو الذى أنحى على الثورة الفرنسية فى رسائله عن مسائل العصر Contemporary Questions لاعتقاده أنها صدت حركة الاستعمار وهى عنده خير علاج تعتمد عليه الأمة الفرنسية فى مكافحة النزعات الاشتراكية ، وقد ذكر فى كلامه عن الإصلاح الفكرى والأخلاقى بعد سنة ١٨٧١ أن حرب فرنسا وألمانيا كانت صدمة قاسية له ، لأنها بددت الحلم الذى كان ينوط به رجاءه فى خلاص العالم ، وفحوى ذلك الحلم أن تعقد الأمتان مع إنجلترا حلفًا مقدسًا لتدبير شئون الأمم المختلفة من شرقيين وغربيين .

ومن فرنسا أيضًا نجمت الحركة التى يسمونها بحركة « رد الفعل » بعد عصر

الثورة الأولى ، فقام فيها جوبينو وأمثاله يعلنون بطلان المساواة بين الطبقات وينادون بحق النبلاء فى حكم الدهماء لما بينهم من التفاوت فى العنصر والاستعداد للرئاسة والقيادة ، فجاءت دعوى العنصر الحاكم ردًّا على دعوى المساواة بين الحاكمين والمحكومين ، وشاع « رد الفعل » هذا فى فرنسا نفسها قبل أن يشيع فى غيرها من الأقطار .

فإذا كانت هذه هى العلل الطبيعية التى يرجع إليها رواج فلسفة العنصر أو فلسفة التفرقة بين الأجناس فهذه التفرقة متصلة بالتاريخ الفرنسى أوثق اتصال من جوانبها الثلاثة : جانب الرق وجانب الاستعمار وجانب الثورة ومعقباتها ، ولا محل لاستغراب ظهور هذه الفلسفة بين الفرنسيين سواء نظرنا إلى أسبابها العلمية أو أسبابها السياسية أو أسبابها القومية التى تتعلق بتركيب بنية الأمة ، بل الغريب حقًا ألا تظهر هذه الفلسفة كلها بين الفرنسيين .

ونعود فنقول إن كتاب « الفلسفة الإسلامية » ليس بالمرجع الذى يعول عليه الفاضل صاحب الاستفسار فى بحثه عن الثقافات العنصرية ، فله أن يأخذه على علاته فى هذا الموضوع .

فلسفة العنصرية . هل هى من الشرق ؟

من نقائض الأوضاع اللغوية أن العلماء الذين يبحثون فى « العنصرية » اليوم يجهلون أصل هذه الكلمة التى تطلق على أصول بنى آدم ، ويعرفونها فى الغرب باسم الرأس .

ومن نقائض الصروف أن يقال - فى أرجح الأقوال - إن الكلمة مأخوذة من اللغة العربية ، وقد كانت أمم العرب أول ضحايا العنصرية حين شاعت دعوى الاستعمار باسم « الرسالة البيضاء » أو رسالة الرجل الأبيض فى تمدين الشعوب السمراء والصفراء والسوداء والحمراء ، وكان الرجل الأبيض فى عرفهم هو كل مستعمر من الأوربيين .

قيل إن كلمة راس Race ترجع إلى « رأس » العربية بمعنى الأصل والأساس ، وقيل إنها مأخوذة من كلمة رأس Race اللاتينية بمعنى الجذر والجرثومة وقيل إنها متصلة بكلمة راسيو التى انحدرت إلى الإيطالية الحديثة من لهجات الرومان الأقدمين ، وقيل غير ذلك إنها انتقلت إلى الجرمانية من كلمة Raz التشيكية بمعنى الطابع و« الروسم » أو الصورة المطبوعة .

ولا يعلم أحد على التحقيق ما هو أصل هذه الكلمة التى تطلق اليوم على أصول الآدميين .

لكن الثابت المحقق أن تقسيم العناصر البشرية معروف قبل ظهور هذه الكلمات فى جميع تلك اللغات .

فقد ظهرت صور الأجناس المختلفة على هياكل الفراعنة قبل الميلاد بأكثر من ألف سنة .

وقد تكلم أرسطو عن الفارق بين السادة والأرقاء فجعل الأرقاء فى حكم الآلات التى يستخدمها السادة لمصلحة عامة أو خاصة وقرر فى كتابه عن السياسة أسلوب المعاملة التى يستحقها هؤلاء العبيد .

وكان اليونان يتكلمون عن البرابرة من الآسيويين والأوربيين ، وكان الرومان يقسمون أمتهم إلى قسم الخاصة وهم وحدهم أصحاب الحق فى مناصب الدولة والرئاسة ، وقسم العامة وهم فى حكم السوام والأرقاء ، ولا يجوز لأحد منهم أن يتزوج بامرأة من الشريفات .

كان هذا قبل ميلاد السيد المسيح .

أما بعد الميلاد فقد بقى لقب الشريف Patrician بعد إلغاء اللقب الوراثى ، وأصبح عنوانًا على المنصب والوجاهة يخلعه العاهل على النابهين من أعوانه كما تخلع الألقاب فى العصر الحديث ، وانتقل هذا اللقب من الدولة البيزنطية إلى دولة شرلمان ومن خلفوه من حكام أوربة الوسطى ، وبقى تقسيم الرعاة والرعايا إلى أصل حر كريم وأصل مستعبد هجين إلى القرن السابع عشر ، ثم دخلت دعوة العنصرية كما دخل غيرها من الدعوات فى طور الدراسة العلمية ، فأصبحت فى القرنين الأخيرين مبحثًا من مباحث العلوم .

يقسمون الأصول البشرية فى العهد الأخير على حسب الاختلاف بينها فى اللون والشعر وشكل الأنف ولون العين وتركيب الجمجمة وطول القامة وخصائص الدم وأشباه ذلك من الفروق .

ويعتدلون فى هذا التقسيم أو يتطرفون .

فالمعتدلون يقولون إن الآدميين كلهم نوع واحد وإن اختلفت الأجناس واختلفت معها الملامح والألوان .

والمتطرفون يذهبون إلى حد القول بتعدد الأنواع وتعدد الأصول البشرية على حسب اختلاف القردة العليا فى تطورها ، فمن البشر من يرجع أصله إلى الغوريلا ومنهم من يرجع إلى الشمبانزى ، ومنهم من يرجع إلى الأورانج أو تانج ، ومنهم بين وبين على اقتراب من هذه السلالة تارة واقتراب من تلك السلالة تارة أخرى .

وغاية التطرف فى هذا الرأى هو قول العالم الألمانى هرمان جوش Gauch الذى تولى ترويج الفلسفة العنصرية فى عهد النازيين ، فإنه يزعم أن الخصائص البشرية مقصورة على الشماليين وأن الأجناس الأخرى وسط بين البشر والقردة وربما كانوا أقرب إلى طبقة القردة منهم إلى طبقة بنى آدم . قال : وإذا سأل سائل ما بال غير الشماليين وهم أقرب رحماً إلى القردة يتناسلون من الشماليين ولا يتناسلون من القردة ؟ فالجواب أن الدليل لم يقم بعد على أنهم وفصائل القردة لا يتناسلون ! ».

ما الصواب وما الخطأ من هذه المزاعم والأقاويل ؟ .

يمكن أن يقال على الإجمال إن الصواب هو جانب البحث والإحصاء منها ، وأن الخطأ هو جانب المفاخرة والمطامع السياسية .

فالثابت الذى لا شك فيه هو اختلاف الأجناس فى الملامح والعادات وبعض المزايا البدنية والنفسية ، ولكن الشك كل الشك فى رد هذا الاختلاف إلى فرق حاسم دائم فى صميم الفطرة التى لا تقبل التبديل ولا تزال تسجل السيادة لقوم وتسجل العبودية على آخرين ، أو لا تزال تسجل لبعض الأقوام ملكات التفكير وأذواق الفنون وتسلب الآخرين هذه الملكات والأذواق .

فالعوامل الطبيعية قد تنشئ المزايا الموقوتة فى بعض الأقوام ولكنها تنشئ هذا المزايا بعينها فى الأقوام الآخرين إذا صادفتهم تلك العوامل وأحدثت فيهم آثارها .

والعوامل الطبيعية قد تسلب كما قد تعطى ، وقد سلبت الآريين حيناً وأعطتهم حيناً آخر ، وكذلك فعلت فى تكوين الأمم السامية ، ومنهم الأمم العربية .

ونعود إلى الرأى الذى كتبنا من أجله مقالنا الماضى عن أصل العنصرية وهو رأى الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان القائل بالتفرقة بين الساميين والآريين فى القدرة على المباحث الفلسفية ومباحث التفكير المجرد على العموم ، فهل أثبت العلم أو التاريخ شيئاً من هذه الدعوى التى بشر بها الفيلسوف المستشرق فى زمن الاستعمار ؟

كلا على التحقيق .

بل الذى ثبت كما قلنا فى كتابنا عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية هو أنه « لا اختلاف هناك فى أصل الطبيعة بين العقل البشرى فى الإغريق والعقل البشرى فى السلالات الشرقية التى ذكروها ، وإنما يقع الاختلاف لأسباب موضعية تجوز على الإغريق كما تجوز على المصريين والبابليين والعرب والفرس والهنود .

« وإنما امتاز الإغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الأزمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية أصيلة فى طبيعة التركيب كما وهم القائلون بذلك الرأى المتعجل العسوف ، ولكنها أبيحت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها ملك قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية ، والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين .

« فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث فى أصول الأشياء وحقائق التكوين وتتولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الافتيات عليه ، وإلا كان المفتئت كالمعتدى على نظام الدولة ومحراب العبادة .. ولو نشأ لليونان دولة كهذه الدول وكهانات كهذه الكهانات لما اجترءوا على التعرض لمسائل الخلق والخالق وطبائع الكون ومكونه بين سواد الناس .. إذ حدث للأوربيين ما حدث فى الشرق حين قامت فى بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث فى حقائق الدين وأسرار الطبيعة وقوانين الوجود . فبطلت الفلسفة والدراسات العلمية فى القرون الوسطى وحيل بين الناس وبينها إلا بأذن من رجال الدين فى حدود النصوص المقررة كما كانوا يفهمونها ويبيحون فهمها ، واستطاعت الكهانة الأوربية أن تفعل ذلك وهى حديثة العهد لم تبلغ من العراقة مبلغ الكهانة المصرية والبابلية ، إذ كانت تعد

أعوامها بالعشرات أو المئات القليلة وقد غبرت على الكهانات القديمة ألوف من الأعوام بعد ألوف » .

إن رينان كان خليقًا أن يعرف فضل الشرقيين على اليونان حتى فى الدراسات الكونية والفلسفية لو سأل نفسه : لماذا لم تظهر الفلسفة اليونانية بادئ الأمر فى غير آسيا الصغرى والجزر الآسيوية ؟ ولماذا لم تظهر الفلسفة اليونانية فى جزيرة كريت قبل اتصال الإغريق بمصر وبابل وقد كشفت الحفريات عن حضارة إغريقية فى الجزيرة من قبل التاريخ ؟

لقد أرضاه أن يحصر المزايا العقلية العليا فيمن يسميهم بالآريين فوقف عند منتصف الطريق ولم يفتح عينيه على جميع الحقائق التى أحاطت به فى هذا المنتصف من الطريق، وهكذا رضى المستشرقون والمستعمرون كما رضى رينان على عجل ، ولو أنهم اصطنعوا الأناة لرجعوا بالفوارق العنصرية إلى قسطاسها المستقيم .

أما القسطاس المستقيم فى هذه المسألة التى حاقت أباطيلها بالأوربيين كما حاقت بالشرقيين فهو ثبوت الاختلاف بين الأجناس البشرية وثبوت الأسباب الطبيعية فى تعليل هذا الاختلاف ، فكل ما جاز على الشرقيين من هذه الأسباب فقد جاز مثله من قبل ، ويجوز مثله من بعد على الأوربيين وغير الأوربيين .

من أحاديث رمضان
الحكمة والشعر

جرى حديث من أحاديث الصيام عن الحكمة والشعر ، وعن المقصود بالأثر المشهور : « إن من الشعر لحكمة » هل يراد بالحكمة مشكلات العقل والعلم أو يراد بها نظرات الأمة إلى الحياة ومواجهة الحياة من جانب الشعور والمزاج ؟

وسأل سائل : لابد أن يكون الشعر الصادق ترجمة صحيحة لطبائع الأمة ونزعاتها النفسية ، فإذا سلمنا هذا الرأى – وهو مسلم – فعلام تدلنا مراجعة الشعر العربى فى جملته ؟ هل يترجم لنا الشعر العربى فى جملته عن إقبال على الحياة أو عن هروب من الحياة ؟ .

أما الإقبال على الحياة فمثاله هذه الأمم التى تنهض برسالة تؤديها أو تطمح إلى سيادة تبسطها .

وأما الهروب من الحياة فمثاله تلك الأمم التى تتخذ أمثلتها العليا فى حياة النسك والزهادة والتنحى عن معركة الحياة لمن يصطرعون عليها .

فأى الحكمتين – أو أى الفلسفتين – يترجم عنه الشعر العربى فى وجهته العامة : هل هو شعر الإقبال على الحياة أو هو شعر الهروب من الحياة ؟ .

قلنا : لا هذا ولا ذاك ، ولا ينبغى أن يكون هذا أو ذاك ، فإن حكمة الحياة فى الأمة ينبغى أن تتسع لكل شعور فى كل نفس حية ، ومن هذا الشعور شعور الرِّضا والسخط وشعور الأمل واليأس وشعور الإقبال والإعراض ، بل شعور الإقبال فى حالات والإعراض فى حالات يتردد فى النفس الواحدة أوقاتًا بعد أوقات .

ومادامت الأمة تشعر بأمر من الأمور فمن الواجب أن تلقى صداه فى بعض شعرها ، أو تلقى صداه فى شعر الشاعر الواحد من كبار شعرائها ، إذا بلغ من رحابة الوعى واتساع الأفق مبلغ الإحاطة بالخوالج الإنسانية فى مختلف النفوس .

شعر الإقبال والطموح ممثل فى قول امرئ القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدَّرْبَ دونه ... وأيقن أنَّا لاحِقَان بقيصرا
فقلتُ له لا تبك عينك إنما ... نحاول مُلْكًا أو نموت فنُعذَرا

وكان الأمر فى هذين البيتين حوارًا بين فلسفتين ولم يكن إعرابًا عن فلسفة واحدة ..

كان حوارًا بين من يبكى من الخطب والمشقة ، ومن يواجه الموت وهو لا يبكى إذا كان فى الموت إقامة عذر ودفع معرة .

والشاعر العربى العباسى - كلثوم بن عمرو المشهور بالعتابى - يمثل لنا شعر القناعة والانقباض فى أبياته التى يخاطب بها امرأته ويقول فيها :

تلوم على ترك الغنى باهليةٌ ... زوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الثرى ... مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أنى نلت ما نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغضنى ... مغصها بالمرهفات البوارد
دعينى تجئنى ميتتى مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد
رأيت رفيعات الأمور مشوبة ... بمستودعات فى بطون الأساود

وهذه الأبيات أيضًا تعرض لنا المسألة من ناحيتيها وتعرضها فى كل ناحية بأدلتها وشواهدها .

فالزوجة تنظر إلى من يرفلن فى الغنى فتطمح ببصرها إلى الترف والزينة وتشتهى المتعة بالرغد والثروة .

والزوج ينظر إلى مصير الوزراء والأغنياء فيعتبر بهذا المصير ولا يسره أن

ينال من العيش ما نال جعفر ويحيى ثم يلقى الموت الفاجع كما لقياه ، هكذا يجتمع الطرفان من الفلسفة الواحدة أحيانا فى بيتين أو بضعة أبيات ، فلا نرى طرفًا منهما يغيب كل الغيب أو يظهر كل الظهور .

وإذا نظرنا إلى فلسفة الحياة من الوجهة الفكرية فقد تكون الفكرة الواحدة سببًا للزهد وسببًا للمغامرة عند شاعرين من شعراء الحكمة والنظر .

فتعب الحياة جعل المعرى يعجب ممن يشتهى طول الحياة كما قال :

تعب كلها الحياة فلا أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد

وهذا التعب نفسه هو الذى يدفع أبا الطيب إلى الغاية من المغامرة كما يقول :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

وكلاهما يورد كلامه فى أسلوب من يتوقع المخالفة ويحس أنه مطالب بالإقناع وإقامة الحجة ، فالمعرى لا يفهم لماذا نطلب المزيد من الحياة إذا كنا نزداد من التعب ، وأبو الطيب لا يفهم لماذا نقنع بالمغامرة القليلة إذا كان الموت فى طلب القليل كالموت فى طلب الكثير ، ولابد من مغامرة على كل حال !

أما إذا كانت المسألة مسألة مزاجية محضة فقد تسمع النقيضين من الشاعر الواحد ، بل تسمع النقيضين من الشاعر الذى اشتهر بالإقبال على الحياة والإقدام على الموت فى سبيل المجد والسلطان .

فإن المتنبى الذى يقول :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تموت جبانًا

هو الذى يقول :

ومراد النفوس أهون من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

وهو الذى يقول :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

لكنك مع هذا الاختلاف تلمس علة الزهد هنا وعلة الطموح هناك فإذا هما يصدران عن خليقة واحدة وهى خليقة الأنفة والكبرياء ..

فالرجل هنا لا يعرض عن الحياة قناعة بالقليل وعجزًا عن تكاليف الجد والطموح .. معاذ الله ! بل يعرض عن الدهر تعاليًا على الدهر وإيمانًا بأن هذا الدهر غير أهل لبقائه فيه وإبقاء بنيه .

وكذلك إذا غامر وقامر فإنما يغامر ويقامر ويقول :

وإنى لمن قـوم كأن نفـوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

فيتجلى الفرق بين الحالتين حين تصدران من خليقة واحدة ، وبين الحالتين حين تصدران من خليقتين متناقضتين .

قال يزيد بن المهلب :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة غير أن أتقـدما

وقال أبو فرعون التميمى :

وما بى شىء فى الوغى غير أننى أخاف على فخارتى أن تحطما
ولو كنت مبتاعًا من السوق غيرها لدى الروع ما باليت أن أتقدما

شعر من بحر واحد ومن قافية واحدة فى موضوع واحد ، ولكنه يريك مدى الاختلاف بين المزاجين والطبيعتين ، من حيث ترى أن المزاج واحد فى طبيعة المتنبى وهو يدعو إلى الزهد والقناعة أو يدعو إلى المغامرة والطموح .

فالترجمة الصادقة إذا تمت لأمة من الأمم فى حكمة شعرائها فعلامة التمام فيها أن تكون ترجمانًا لكل حالة وحجة لكل مستشهد ، وصورة متجلية لكل مزاج من أمزجة الحياة العامة أو الخاصة .

وهكذا كان الشعر العربى فى تعبيره عن فلسفة الإقبال على الحياة وفلسفة الإعراض عنها . وهكذا كان هذا الشعر فى عصور القوة والمجاهدة وعصور الاضمحلال والذبول .

وحسبك من عصر القوة والمجاهدة أن يقول المتنبى فى القصيدة الواحدة :

ومراد النفوس أهون من أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحى لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

وحسبك من عصر الاضمحلال والذبول أن يقول الطغرائى فى القصيدة الواحدة أيضًا :

حب السلامة يثنى عزم صاحبه عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
فيم اقتحامك لج البحر تركبه وأنت تكفيك منه مصة الوشل
أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبلى

وما أخال أن هذه الفلسفة عرضت قط فى شعر شاعر إلا وهى على هذه الصورة التى نلمح فيها الخلاف ولا نلمح فيها التسليم .

نعم إن الشعراء الذين اشتهروا بالحكمة فى اللغة العربية قد غلبت عليهم فلسفة القناعة فى كثير من الأقوال ، فكان جملة ما نظموه فى التنويه بها أظهر وأشهر مما نظموه فى التنويه بالمغامرة والطموح .

فأبو العتاهية يقول :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تُساق إليك عفوًا ألىس مصير ذلك للزوال

وأبو تمام يقول :

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا
لو جاز سلطان القنوع وحكمه فى الأرض ما كان القليل قليلا

وابن الرومى يقول :

مرحبا بالكفاف يأتى عفيًا وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لامرئ يشمر فى الجمـ ـع لعيش مشمر للفناء

ومهيار يقول :

ملكت نفس منذ كففت أملى اليأس حر والرجاء عبد

وهكذا يقول كثير من الشعراء فى كثير من العصور ، ولكنك تستطيع أن ترجع إلى مواقع الكلام من شعرهم فتعلم أنه تعبير عن شعورهم فى مقام التعزى والتجمل وليس بالتعبير عن كل شعور فى كل مقام . أما الكلام الذى هو أجدر أن يعبر عما حولهم فهو مدائحهم لأبطالهم وبيانهم للمآثر الذى استحقوا به ذلك المديح ، وأولها الإقدام والإقبال على طلب المجد والسيادة ، فلو لم تكن هذه الخليقة مأثورة بالمدح فى تلك العصور لما أغرق الشعراء فى الثناء عليها ذلك الإغراق .

وملتقى الآراء فى هذا الحديث أن شعر الحياة قمين أن يمثل لنا جميع جوانبها ، ومنها فلسفة الزهد والقناعة ، على شريطة أن تأخذ مكانها ولا تجور على أمكنة غيرها من فلسفات الحياة .

من أحاديث رَمَضان
شِعْر العبيد

لا أحسب أن كثيرًا ممن قرءوا فى بعض هذه المقالات كلامى عن تقصير المرأة فى شعر الرثاء قد فهموا منه أننى أنكر وجود النساء الشواعر أو أنكر ظهور الشاعرية فى النساء ، فإن المرأة الشاعرة « ظاهرة أدبية » معروفة فى الآداب العالمية وقد نعود إلى الكلام عليها فى غير هذا المقال .

ولكن صاحب الخطاب الذى نعقب عليه بمقالنا هذا قد فهم أننا ننكرنا وجود النساء الشواعر أو وجود النساء اللاتى يروى لهن شعر فى الرثاء فكتب إلينا يقول : « .. وأين أنتم من جليلة بنت مرة والخرنق أخت طرفة والسلكة أم السليك وليلى العفيفة وهند بنت النعمان والخنساء وغيرهن من الشواعر الراثيات والمتغزلات .. ؟ » .

ثم قال ما فحواه : إن حياة العبودية التى كانت مضروبة على المرأة فى قديم خليقة أن تفسر لنا قصور المرأة فى الشعر والفنون .. إلى غير ذلك من المعاذير التى لا تخرج عن هذا المعنى ، ومنها الحجاب .

ونحن نخالف صاحب الخطاب ولا نعتقد صحة المعاذير التى يلتمسها للمرأة فى تقصيرها عن الرجل فى شعر الرثاء على الخصوص . فإن الرثاء باب لم تغلقه الأمم دون المرأة من قديم الزمن ، ولا نعرف فيما اطلعنا عليه من الشعر العربى وغير العربى قصيدة واحدة ترتقى إلى طبقة المراثى التى أثرت عن شعراء الرجال .

أما الحجاب فلم يكن شائعًا بين العرب فى الجاهلية ولم يكن شائعًا بين الأوربيين فى جميع العصور ولا نظنه من المعاذير الصحيحة إذا التمسنا الفوارق بين الرجل والمرأة فى نظم الشعر وتجويد غيره من الفنون .

وقد كانت المرأة محجورًا عليها بعض الحجر فى الأمم القديمة ، ولكنه حجر - مهما يبلغ من شدته - لا يشتد عليها اشتداد الرق والعبودية على الأرقاء من العبيد والإماء ، وقد نبغ الشعراء فى طبقة العبيد من كل أمة ، ونبغ منهم فى اللغة العربية عدد غير قليل نعد منهم عنترة والسليك وسحيمًا ونصيبًا وسديفًا وأبا دلامة ، وهم جميعًا فى طبقة الأوساط من شعراء العربية ، وجيدهم قد يرتقى إلى الطبقة العليا من الشعر بين الشعراء كافة .

على أن المهم الذى نلفت إليه النظر ونؤكد لفت النظر إليه - أن المزية الأولى من مزايا الشعر المطبوع - وهى مزية الشخصية ، تبدو بارزة جلية فى كلام هؤلاء الشعراء العبيد ولا تبدو إلا قليلاً جدًّا فى شعر من الحرائر أو الإماء .

فمن الجائز أن تجمع شعر النساء كله فى ديوان واحد وتخلط بعضه ببعض ولا يرى فيه القارئ ما يمنعه أن يقول إنه ديوان شاعرة واحدة . فهى « أنوثة » واحدة تكاد أن تتلبس بشخصية واحدة وتعبر عن سليقة واحدة وقليلاً ما تتمايز « الشخصيات » من وراء هذه الطبيعة العامة إلا أن يكون بعض الشعر فى النسك وبعضه فى الخلاعة ، فإنك تعلم أن الشاعرتين مختلفتان لاختلاف النسك والخلاعة ، ولو جاز أن تنظم فيهما الشاعرة فى وقت واحد أو أوقات مختلفة لما رأيت هناك اختلافًا فى طبيعة الكلام .

ليست هذه « الشخصية الممسوحة » مما تراه فى كلام الشعراء العبيد ، فإن الناقد ليميز الشخصيات الكثيرة لأول وهلة فى كلام عنترة وسحيم ونصيب وأبى دلامة ، ولا يكون التمييز لمجرد اختلاف الموضوع مع بقاء الطبيعة واحدة فى القصائد المختلفة ، بل هو تمييز بالروح والدلالة والأسلوب .

وأكاد أقول : إن « العبودية » نفسها تتخذ لها سمات مختلفة فى أشعارهم أجمعين .

فالعبد قد يعتذر لعبوديته بمحاكاة الأحرار فى النبل والمروءة والشجاعة .

وقد يعتذر لعبوديته بالرجولة التى تسطو فلا تعتصم منها محارم السادة الأحرار .

وقد يعتذر لها بالإباق والخروج على المجتمع ، كما يتركها على علاتها ويقنع بالإخلاص فى ولائه والمساواة فى الله بين السادة والعبيد .

وكل سمة من هذه السمات المنوعة ظاهرة فى شاعر من هؤلاء الشعراء المتعددين .

عنترة العبسى ينفض عنه العبودية بالحياة الكريمة التى أوهنتها السن ولم توهنها موارد الحروب :

فتا أوهى مراس الحرب ركنى ولكن مـا تقادم من زمـانى

ويحب حب الفرسان الأكرمين حين يضع نفسه فى مكانه ويضع حبيبته المترفة فى مكانها :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سراة أدهم ملجم

فهو الذى يذكر أنه عبد فتدفعه هذه الذكرى إلى مجاراة الأحرار وسبقهم فى مجال الأنفة والاستعلاء .

والسليك بن السلكة عبد أيضًا ولكنه يترجم عن عبوديته بالإباق والتشرد والسطو على الأموال والأعراض ، ويفخر إذا لقى الجموع بأنه قد لقى الجموع التى فيها الحوفزان سيد قومه :

كراديس فيها الحوفزان وحوله فوارس همام متى يدع يركبوا

ولم يكن سحيم عبد بنى الحسحاس من طراز عنترة ولا من طراز السليك فى عبوديته وشعره ولكنك ترى انتقامه لعبوديته ماثلا كله فى هذا البيت الذى يخاطب به سادته إذ يقول :

ولقد تحدر من جبين « فتاتكم » عرق على جنب الوساد رطيب

ثم هو لا يبالى أن يكون دميم الوجه حقير القدر أعجم اللسان إذا استطاع أن يقول عن الحارثيين :

أتيت نساء الحارثين غدوة بوجه يراه الله غير جميل
فشبهنني كلبًا ولست بفوقه ولا دونه إن كان غير قليل

وأحسب هذا العبد الفاجر إمام الشعر المكشوف فى اللغة العربية قاطبة ، ومن كلامه ما يروى فى هذا المقام وما لا يروى ، ومنه ما سمعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له : إنك لمقتول !

وقد كان كما قال ! .

* * *

ثم ظهرت الدولة العربية فظهر فيها نمط من شعر العبيد يناسب الحضارة ويختلف عن شعر العبيد فى طور القبيلة أو طور البداوة .

فلا فروسية ولا إغارة على أطراف القبائل أو على عقائلها وإنما هى المعيشة الوادعة والطمأنينة إلى صدق الولاء فى ظل السادة الأقوياء .

وفى هذا الجيل نبغ نصيب مولى عبد العزيز بن مروان ، وكان يغلب الفرزدق على الجوائز فيقول فيه :

وخير الشعر أكرمه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيد

وكان الشعراء الفحول فى عصره يقولون عنه إنه أشعر بنى جلدته لينزلوه فى منزلة دون التى يدعونها لأنفسهم وهى منزلة الشاعر الأول بين العرب ، فكان يقول لهم : « نعم .. وأشعر الإنس والجن » ..

ولكنه قنع بصغاره ولاح منه هذا الصغار فى ولعه بالبنيات الصغيرات وقد أوفى على الشيخوخة .

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار

كأنه يشفق أن يتغزل بمن يرددنه محتقرات ، وينسب إليه بيت فيه سخف لا يستغرب منه وهو قوله :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فيا ويح دعد من يهيم بها بعدى

وقد صححه عبد الملك بن مروان فقال :

أهيم بهند ما حييت فإن أمت فلا صلحت هند لذى خلة بعدى

فقال ما ينبغى لملك وقال نصيب ما ينبغى لعبد إن صحت نسبة البيت إليه .

وغير نادر فيما نعلم غلو المولى فى ولائه لذويه وغيرته فى هذا الولاء غيرة لا تجدها بين الأقربين ، ومن هؤلاء الموالى الذين اشتهروا بالغلو فى الغيرة على بنى هاشم سديف مولى السفاح الذى قال له وقد رأى جماعة من بنى أمية جلوسًا لديه :

لا نقيلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رفلة وغراس
ضعفهم أظهر التودد فيهم وبهم منكم كحز المواسى

وقال مرة أخرى :

لا يغرنك ما ترى من وجوه إن تحت الضلوع داءً دويّا
فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فبردت ذحول بنى هاشم ولم تبرد نقمة مولاهم هذا على الأمويين ، وهذا هو مثال العبد فى صورة المولى المخلص الصدوق .

وهناك طرف آخر من الولاء نلقى فيه زند بن الجون الحبشى المكنى بأبى دلامة .

إلا أنه ولاء سهل كسهولة طبع صاحبه الذى أعفى نفسه من المصاعب والتكاليف ولاذ من العبودية بالسخرية يسرى بها عن نفسه وينادم بها سادته ويجترئ بها عليهم حيث لا يجترئ الأنداد والنظراء .

ويتوهم من يرى مسكنة أبى دلامة فيحسب أنه قد غفر لنفسه عبوديتها وكف

عن محاولة الانتصاف لها فى قالب من القوالب التى تتيسر للشاعر الساخر .

مدح الخليفة المهدى فقال :

أدعوك بالرحم التى هى جمعت فى القرب بين قريبنا والأبعد

فوقع البيت أسوأ موقع من الخليفة الغيور الذى تقوم دعوته كلها على النسب ويجمع كل اعتزازه فى أصالته وعراقته وانتمائه إلى الرسول عليه السلام وإلى الصفوة من قريش قبل الإسلام ، فصاح به :

ويلك أى رحم بينى وبينك ؟ .

وكأنما اكتفى أبو دلامة بهذا التذكير فرجع إلى الدعابة يقول : أبونا آدم ، وأمنا حواء .. أنسيتهما يا أمير المؤمنين ؟

ولعل الخلفاء كانوا يحسون منه « عقدة النسب » هذه فيحرجونه بها كلما سنحت لهم سانحة حرج ، ومن ذاك أنه دخل على المهدى وعنده رهط من بنى هاشم فأقسم ليقطعن لسانه إن لم يهج أحدًا ممن فى المجلس ، وهذا هو المأزق الذى خلص منه ضحية النسب بهجاء نفسه وزاد عليه فسجل لهم لؤمه ، كأنه يقول : إن كان هذا الذى يعجبكم فلا أباليه واسمعوه :

ألا أبلغ إليك أبا دلامة فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لبس العمامة قلت قرد وخنزير إذا خلع العمامة
جمعت دمامة وجمعت لؤما كذاك اللؤم تتبعه الدمامة

ولقد أفادت السخرية صاحبنا ما لا تفيده الشجاعة أناسًا غيره ، فما نحسب أن عنترة العبسى كان يواجه الخليفة المنصور بالسخرية من شعائر دولته كما فعل أبو دلامة حين قال :

وكنا نرجى من إمام زيادة فجاد بطول زاده فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

وكان شعار ذلك العهد لبس السواد وإطالة القلانس وأن يعلق الجندى سيفه إلى خلفه وأن يكتب على ظهره « فسيكفيكهم الله .. » .

فلما سأل المنصور أبا دلامة عن حاله فى الدولة الجديدة أجاب بغير أناة : « شر حال .. السواد لباسى ووجهى فى وسطى وسيفى فى عجزى وكتاب الله وراء ظهرى » .

ولو قالها غيره لطاح فيها رأسه قبل أن يبرح مكانه . فإنما هى عصمة الدالة التى كانت تشفع له بالولاء والشعر والسخرية وحسن المنادمة .

تلك فئة من الشعراء العبيد فى اللغة العربية من عهد الجاهلية إلى عهد الدولة العباسية ، لا يدل حظهم من الشعر على أن العبودية تمحو السليقة الشعرية من نفس رجل مطبوع عليها سواء عاش فى أيام الحضارة أو أيام البداوة ، بل نراهم يحتفظون بالشاعرية وبملامح الشخصية التى يمثلون بها أطوار العبودية على اختلافها وهى خاصة قلما نلاحظها فى أشعار النساء من الحرائر والإماء فضلاً عن الفارق فى جودة الشعر وفحولته ، وذلك ما نعود إلى بيانه فى غير هذا المقال .

شعر المرأة فى اللغة العربية

قالت جليلة بنت مرة ترثى أخاها وزوجها :

جَلَّ عندى فعل جَسّاس فيا ... حسرتى عمّا انجلى أو ينجلى
فعل جساس على وجدى به ... قاطعٌ ظهرى ومدنٍ أجلى
ياقتيلا قوض الدهر به ... سقف بيتٍ جمعًا من عل
هدم البيت الذى استحدثته ... وانثنى فى هدم بيتى الأول
خَصَّنى قتل كليب بلظى ... من ورائى ولظى مستقبل
ليس من يبكى ليوميه كمن ... إنما يبكى ليوم ينجلى

وقالت دختنوس بنت لقيط بن زرارة ترثيه :

بكر النعى بخير خند ... ف شيبها وشبابها
وأضرها لعدوها ... وأفكها لرقابها
وقريعها ونحيبها ... عند الوغى وشهابها
ورئيسها عند الملو ... ك وزين يوم خطابها

وقالت السلكة ترثى ابنها سليكًا السعدى :

طاف يبغى نجوة ... من هلاك فهلك
ليت شعرى ضلة ... أى شىء قتلك
أمريض لم تعد ... أم عدو ختلك
أم تولى بك ما ... غال فى الدهر السلك
والمنايا رصد ... للفتى حيث سلك

وقالت الخرنق ترثى عشيرتها :

لا يبعدن قومى الذين همو سم العداة وآفة الجـزر
النـازلـين بكـل معتـرك والـطيبون معـاقـد الأزر
الضاربون بحـومة نـزلت والـطاعنون بـأذرع شعر
إن يشربوا يهبوا وإن يذروا يتواعظوا عن منطق الهجر

وقالت ليلى الأخيلية ترثى زوجها توبة الحميرى :

ونعم الفتى ياتوب كنت إذا التقى صدور العوالى واستشال الأسافل
ونعم الفتى ياتوب كنت لخائف أتاك لكى يحمى ، ونعم المنازل
ونعم الفتى يا توب جارا وصاحبا ونعم الفتى يا توب حين تفاضل
أبى لك ذم الناس ياتوب إنما كذاك المنايـا عاجـلات وآجل
ولا يبعدنك الله يا توب والتقت عليك الغوادى المدجنات الهواطل

وقالت ليلى بنت طريف الشيبانية ترثى أخاها :

فتى لا يعد الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قَنا وسيوف
فقـدناك فقـدان الربيـع وليتنا فـديناك من سـاداتنا بـألـوف
فيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تحزن على ابن طريف

وقالت الخنساء وهى أشهر شواعر العرب ترثى أخاها صخرًا :

تبكى خناس على صخر وحق لها إذ رابها الدهر إن الدهر ضرار
وإنّ صخـرا لوالينـا وسيـدنـا وإن صخـرا إذا نشتو لنحـار
وإن صخرًا لمقدام إذا ركبـوا وإن صخرًا إذا جاعـوا لعقار
وإن صخـرًا لتأتم الهـداة بـه كـأنـه عَلَم فى رأسـه نـار
حمـال ألويـة ، هباط أوديـة شهـاد أنديـة ، للجيش جـرار

هذه نماذج من شعر المرأة العربية فى رثاء الآباء والأبناء والإخوة والعشيرة والأزواج ، وكل زيادة عليها من كلام الشواعر المعروفات أو غير المعروفات فهى زيادة فى العدد لا فى النوع والصفة . لأن الرثاء كله فى شعر النساء

العربيات لا يخرج عن هذا المعنى المألوف بين جميع الراثيات والباكيات ، وقوامه النواح على الميت وتعداد المناقب المأثورة عن الرجال عامة وتكرار التفجع بصيغة واحدة يتغير فيها بعض الكلمات ولا يتغير فحوى الكلام ، ومثل هذا الرثاء يسمع اليوم فى المناحات والمآتم من نساء المدن والقرى بمصر وغير مصر دون اختلاف .

* * *

فى مقال الأسبوع الماضى عرضنا لشعر العبيد فى اللغة العربية لنخلص منه إلى بطلان قول القائلين إن تقصير المرأة فى الشعر راجع إلى حياة العبودية التى كانت مضروبة عليها فى العصور الغابرة .

وقد رأينا من شعر طائفة من العبيد أن العبودية لم تمح الشاعرية فى سليقتهم وأنها ألفت لهم مع الشاعرية « شخصية مستقلة » يمتاز بها كل منهم فى شعره ومزاجه ومنحاه .

وإنه لمن التجور الكثير أن يقال إن المرأة العربية كانت مستعبدة أو محجوبة فى أيام الجاهلية على الخصوص ، ولكنها على التحقيق كانت تبكى موتاها منذ القدم وتنظم الشعر فى رثائهم كما ينظمه حتى اليوم نائحات المآتم المعروفات عندنا فى الريف والحضر ، فإن كانت على استعداد للعبقرية الشعرية فباب الرثاء أحق الأبواب أن تجيد فيه ، وأن تتفوق به على الرجل الشاعر كلما تناول موضوعه بين الحين والحين ، وليس أقل من الرثاء فى أشعار الرجال على التعميم ، قياسًا إلى ما نظموه فى غيره من الأغراض . ونحن قد اخترنا شعر الرثاء خاصة لأنه أول الدلائل على ما قصدناه من هذا المعنى ، وهو قصور المرأة فى الملكة الفنية والملكات الذهنية على تنوعها ، وأظهر ما يكون ذلك فى الأعمال التى مارستها المرأة منذ القدم كالطبخ وتفصيل الملابس والتجمل بالزينة ، وهى لا تساوى الرجل فى عمل من هذه الأعمال ، إذا اتفق له أن يمارسها عرضًا كما اتفق فى العصر الحديث .

فإذا نظمت المرأة الشعر فهناك فارق محسوس بين شعرها وشعر الرجل فى الجودة والطبقة ، وهناك فارق آخر فيما هو أهم من الجودة والطبقة وهو مزية

الملامح الشخصية أو ملامح « الإنسان » المستقل بشخصيته بين أمثاله من الرجال .

ففى رثاء المرأة « أنثى » واحدة تسمع منها عولة الجنس الأنثوى على وتيرة مشابهة، وتستطيع بغير جهد كبير أن تخلط بين عشرين قصيدة لعشرين شاعرة فلا ترى بينها ما يضطرك إلى استغراب هذا الخلط بين عباراتها ومعانيها ، ولكنك تشعر بهذه الغرابة إذا خلطت بين قصائد ثلاث فى موضوع واحد من موضوعات الرثاء التى ينظمها شعراء الرجال . فلا مشابهة بين نفس الشريف الرضى وهو يرثى بهمزيّته التى يقول فى مطلعها :

أبكيك لو يجدى عليك بكـائى وأقول لو ذهب المقـال بدائى
وأعـوذ بالصـبر الجميل تعـزيًا لو كان بالصبر الجميـل عزائى

وبين نفس المتنبى وهو يقول فى مثل هذا الغرض :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

وبين ابن الرومى وهو ينظم ميميته التى يقول فيها :

رجعنـا وأفردنـاك غير فـريدة من البر والمعروف والخير والكرم
فلا تعدمى أنس المحل فطالمـا عكفت فآنست المحاريب فى الظلم
نبا ناظرى يا أم عن كل منظر وسمعى عن الأصوات بعدك والنغم
وصـارمت خلانى وهم يصلوننى وقد كنت وصّال الخليل وإن صرم

فليس أمامنا هنا « جنس » واحد يتكلم على نمط واحد بأفواه متعددة ، بل هناك « شخصيات » مستقلة يصدر الحزن عن كل منها على حسب طبيعته وإدراكه وشعوره بما فقد من أحبابه .

وإذا تركنا هؤلاء الشعراء الأحرار ورجعنا إلى شعرائنا العبيد كما أجملنا خصائصهم فى مقالنا السابق فمن النادر جدًّا أن ترى فارقًا بين ست شواعر أو سبع فى لغة واحدة كالفارق بين عنترة وسحيم ، أو بين تأبط شرًّا وأبى دلامة ، أيًّا كان الموضوع الذى ينظمن فيه ..

ولنذكر دائما أن اختلاف الموضوع لا يعنى اختلاف القدرة الفنية ، فإن الممثل الذى يبكينا هو الممثل الذى يضحكنا فى الملكة والقدرة .

وليس الانتقال من موضوع المأساة إلى موضوع المهزلة بمخرج هذا الفنان من سليقته ومزاجه ، ولكنه تغير عرضى لا علاقة له بالجوهر فى صميمه ، وكذلك التغيير بين شعر امرأة تتغزل فى عاشق وشعر امرأة تتغزل فى الله أو تنظم فى غير الغزل من الأغراض الشعرية ، فليس الاختلاف هنا بالاختلاف الجوهرى فى طبيعة الشخصية ، وإنما هو اختلاف عناوين وأسماء تشترك فى الدلالة على مزاج واحد .

ويحدث أحيانًا أن تروى لامرأة شاعرة مرثاة فيها بعض التصرف كما جاء فى رواية الأصمعى حيث يقول : « دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لى ، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال ، وعليها من الحلى والحلل ما لم أر مثله ، وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى ، فالتفت إلى صاحبى فقلت : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال لا والله لا أحسبنى أراه . ثم قلت لها يا هذه إنى أراك حزينة وما عليك زى الحزن .. فأنشأت تقول بعد أبيات :

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى ... بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حلى وفى حلل ... كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه ... أن قد تسر به فى بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عبرى موالهة ... عجيبة الزى تبكى بين أموات

فإذا تناسينا أن الأصمعى وضّاع روايات وأن دلائل التلفيق بادية على القصة برمتها فالتصرف هنا من قبيل التصرف الذى يتكرر من زائرات القبور كل يوم ، إذ يفرقن على السائلين طعامًا مختارًا مما كان يحبه الموتى ويقترحونه على الأهل والأزواج ، فهو بعض مراسم النواح فى المآتم المعهودة ، يلحق برثاء الجنس الشائع ولا يحتاج إلى فرض « شخصية » ذات نصيب وافر من الاستقلال .

هل معنى ذلك كله أن النساء لا يختلفن ؟ كلا بطبيعة الحال ، فإن اختلاف

المرأة فى صورة الحس والخيال ظاهر فى كل قوم وكل بيئة ، وإنما معناه أن العبقرية الفنية فيهن تقلد ولا تبتكر ، وقلما يبدو التفاوت فى عبقريات المقلدين .

وبعد فقد كتبنا كثيرًا عن مسألة المرأة وملكاتها الذهنية والفنية ، ونزيد فى ختام هذا المقال على ما كتبناه أن زماننا الذى نحن فيه لا شك مختل معتل قليل الحيلة فى علته واختلاله ، فبحق يعجز عن علاج شأنه إذا ظل التفاوت البديهى بين جنسيه موضع مناقشة وخلاف ، وهو أغنى الأمور عن المناقشة والخلاف .

حقائق عن الأمة الكورية

أدار العالم عيونه كلها فجأة إلى شبه الجزيرة الكورية فى الشرق الأقصى ، حيث يتطرع الشيوعيون والديمقراطيون اصطراعًا له ما بعده ، وقد يكون ما بعده جد قريب ، وقد يرتبط به مصير الإنسانية إلى عدة قرون .

وليست هذه أول مرة يتحول فيها نظر العالم إلى شبه الجزيرة الكورية ، فقد برز هذا الاسم من طيات الخمول الذى يخيم عليه مرات فى العصر الحديث قبل هذه المعركة الأخيرة : برز من طيات الخمول قبل أربعين سنة حين أعلنت اليابان ضم البلاد الكورية جميعها إليها ، وبرز قبل ذلك فى إبان النزاع الذى أفضى إلى الحرب الروسية اليابانية وتردد غير مرة قبل ذلك فى أخبار الصين الشمالية وحوادث الشرق الأقصى على الإجمال .

ولكن الأمة الكورية ظلت مجهولة بين أمم الأرض على كثرة التحدث عنها بين آونة وأخرى ، فلا توجد على ظهر الكرة الأرضية أمة كبيرة يجهلها الناس كما يجهلون هذه الأمة العريقة ، ولا يوجد بين العارفين بها من يهتم بإظهارها للناس على حقيقتها ، لأنهم يتكلمون عنها جميعًا كلام الطامعين فيها والمتربصين بها ، فلا ينشرون عنها إلا الأكاذيب المفتراة عليها أو الوقائع التى تسىء إلى سمعتها ، وما خلت أمة قط من وقائع تسىء إلى سمعتها إذا انعزلت عن سائر وقائعها .

وأول ما يخطر على البال إذا سمع الناس بالبلاد الكورية التى ضمتها اليابان إليها كما تضم المستعمرات المهجورة ، والتى يتوالى النزاع عليها بين الأمريكيين والروسيين والصينيين ، أنها شعب من تلك الشعوب الهمجية التى دخلت فى عداد

الولايات المستعمرة ولم يرتفع إلى مرتبة المساواة مع أمة من الأمم الشرقية التى تطمع فيها ، ومنها الصين واليابان ! ولا يزال الأكثرون من السامعين بشبه الجزيرة الكورية فى جوانب الأرض يظنون بها هذا الظن ويحسبونها فى زمرة الشعوب التى تستباح بالحق أو ما يشبه الحق لمطامع المستعمرين .

أما الحقيقة فهى أن مصيبة الأمة الكورية هى مصيبة الكمية لا مصيبة الكيفية كما يقول المناطقة .

فهى أقل عددًا من جميع الأمم المحيطة بها والطامعة فى بلادها لموقعها ووفرة خيراتها : لا تبلغ عشر الصين ولا نصف اليابان ولا ربع الشعوب التى تتألف منها الدولة القيصرية ، ولكنها من وجهة الحضارة والتهذيب الاجتماعى أرقى من الروس وأرقى من الصينيين وأرقى من اليابان .

إن مجلس الأمن يتحرك فى هذا الزمن الأخير باسم السلام العالمى لحماية الأمة الكورية فى جنوب شبه الجزيرة .

ولكن الدولة الكورية قامت باسم هذا السلام قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وكان الاسم الذى اختارته عنوانا لآداب السلام المتأصلة فى طباعها ، لأن « شوسن » وهو اسمها القديم معناه سكينة الصباح أو سلام الصباح ، وهو الشعار الذى اتخذه لها حكامها الأولون .

ومن عجائب هذه الأمة أن الدول تقوم فى غيرها على أيدى الفاتحين والمغامرين من قادة الجيوش وجبابرة الحروب ، إلا الدولة التى قامت فيها قبل الميلاد بأكثر من ألف سنة ، فإنها قامت على يد فيلسوف من طلاب الخير والإصلاح يسمى « كيجا » ويقال إنه كان ينتمى إلى طائفة الحكماء النساك من أهل الصين .

وليس فى الشرق ولا فى الغرب القديمين أمة تفوق الأمة الكورية بكثرة الموسوعات الثقافية أو التاريخية فى جميع فروعها ، ولا سيما فروع الحكمة والشعر وآداب السلوك ، ومن فطنة هذه الأمة أنها حلت مشكلة الكتابة التى يعالجها الصينيون حتى الساعة ولا يتغلبون عليها ، فحولت الكتابة من الرموز والأشكال إلى الحروف الأبجدية ، وجاءت طريقتها فى اختراع « أبجديتها »

على نمط ميسر للقريب والغريب ، فلولا بعض العيوب التى تلازم التحول العاجل من الكتابة الشكلية إلى الكتابة الحرفية لكانت الأبجدية الكورية فى عرف المختصين من علماء الرسم أرقى الأبجديات .

وقد كان الكوريون أمة سلام لأنهم أمة حضارة مهذبة ، ولم يكونوا كذلك لأنهم جبناء أو عاجزون عن القتال .

فمنذ أكثر من ثلاثة قرون صمد هؤلاء القوم الوادعون للجيوش اليابانية فهزموها وأوشكوا أن يبسطوا سيادتهم على جزر اليابان من وراء معاقلها وبحارها ، وكان اليابانيون قد حصروا شبه الجزيرة بالسفن الحراقة على غير أهبة منها فقهروها وسيطروا عليها ، فلم يلبث الكوريون قليلاً حتى اخترعوا للحرب البحرية سلاحًا أقوى من سلاح السفن الحراقة ، فصنعوا الدارعة المصفحة ذات الطبقات المتراكبة وتعقبوا بها الأسطول الياباني إلى عقر داره ، ثم عدلوا عن مواصلة القتال لما فيه من التكاليف المرهقة ، ولا حاجة بقوم يبغضون الحرب والإيغال فى العدوان إلى احتمال تلك التكاليف .

* * *

لسر من أسرار القدر المجهول تبتلى هذه الأمة الوادعة بالطامعين الأقوياء من الشرق والغرب والجنوب ، وتحدق بها تيارات النزاع من قارات العالم القديم وقارات العالم الجديد ، ومن جانب البر وجانب البحار .

ولابد أن يجرى السؤال على كل لسان : ألم يكن من الخير لهذه الأمة التى أمن الناس منها أن تترك فى أمان على نفسها ؟ ألم يكن من الإنصاف لها أن تعيش بمعزل عن الدول ومنازعاتها ؟ أليس سلام هذه الأمة خيرًا لها وللناس فى العالمين القديم والحديث ؟

سؤال طبيعى يجرى على كل لسان ، ولكن الجواب عليه لا يأتى قبل الجواب على سؤال آخر متقدم عليه ، وهو : ماذا كان حقيقًا أن يحصل لهذه الأمة لو تركت فى أمان كما يتمنى لها المنصفون ؟

كانت تبقى على حضارتها القديمة ، وتعفيها الدنيا من الاحتكاك بها فلا تشعر

بالحاجة إلى مجاراة الزمن فى مخترعاته وعلومه وصناعاته ، فلا تلبث أن تركد وتتخلف عن ركب الحضارة الحديثة ، فتضمحل وتزول .

وكان هذا حقيقًا أن يحدث فلا يكون من الخير لهذه الأمة ولا من الخير للدنيا بأسرها ، وكائنًا ما كان الرأى فى جانب هذا الاحتمال أو فى جانب غيره من الاحتمالات فالحقيقة التى تبقى على كل احتمال هى أن الخير العام فى تاريخ الإنسانية بأسرها أعظم جدًّا من أن يتناوله الحكم بهذه السهولة على أثر حادث من حوادث الزمن الذى يتجدد على الدوام ولا يدوم على حال .

* * *

وتبقى من الشبهات فى أطوار الأمة الكورية شبهة ترد على اتصافها بالوداعة والمسالمة ، وشبهة أخرى ترد على اتصافها بالشجاعة والقدرة على المقاومة .

فكيف يتفق مع حب السلم عدوان أهل الشمال على إخوانهم أهل الجنوب ؟

وكيف يتفق مع الشجاعة ومقاومة العدوان هذا الفرار المتلاحق فى كل معركة من المعارك الأولى التى اشتبك فيها الشماليون مع الجنوبيين ؟

والأمر واضح أن الشقاق فى صفوف هذه الأمة طارئ جديد من فعل السياسة الدولية ، ولكننا نبالغ فى تقدير أثر السياسة الدولية إذا رددنا إليها وحدها هذا الانقسام الجديد بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب فى شبه الجزيرة الكورية .

فمن قديم الزمن كانت أقاليم الشمال على وضع مخالف لأقاليم الجنوب فى مزايا التربة الطبيعية .

كانت أقاليم الشمال غنية بالمناجم والمعادن والغابات ، وكانت أقاليم الجنوب غنية بزراعة الحقول ولا سيما زراعة الحبوب .

ولو مضى الزمن على سنته فى العصور الغابرة لما كان لهذا الاختلاف أثر يوجب الانقسام بين صفوف الأمة الواحدة ، ولكنه فى هذا العصر – عصر المخترعات الحديثة والآلات الصناعية الكبرى – خليق أن يسفر عن وجهتين وعن دعوتين .

ففى أقاليم المعادن والصناعات يكثر العمال ويكثر الداعون بينهم إلى الشيوعية .

وفى أقاليم الزراعة يكثر الفلاحون وتكثر الأرض المملوكة لكبارهم وصغارهم فلا يفلح بينهم دعاة الشيوعية كما يفلحون فى الشمال .

واتفق على عهد الحكم اليابانى أن كثرت الهجرة من شبه الجزيرة الكورية إلى الأقاليم الخاضعة لروسيا فى القارة الآسيوية ، فرحبت بهم حكومة الروس فى عهد القياصرة وعهد الشيوعيين ، ومنحتهم حقوقًا سياسية كحقوق أبناء البلاد الأصلاء ، فانعقدت بين الفريقين صلات المساعدة من عشرات السنين ، وعاد المهاجرون الكوريون بعد هزيمة اليابان إلى مواطنهم فى الجنوب كما عادوا إلى مواطنهم فى الشمال ، فاتخذت منهم روسيا الحمراء أعوانًا مطيعين ولو لم يكونوا جميعًا من الشيوعيين .

ولا فرق بين أهل الشمال وأهل الجنوب فى صفات الشجاعة والإقدام على المقاومة ، فإن تاريخهم القديم لم يعهد فيه مثل هذا الاختلاف فى الخصائص القومية ، ولكن هجوم الشماليين وفرار الجنوبيين يرجعان إلى طبيعة الفرق بين الدعوتين المتنازعتين على شبه الجزيرة : دعوة الشيوعية فى الشمال ودعوة الديمقراطية الأمريكية فى الجنوب .

فالروسيا قد بذلت غاية جهدها فى تنظيم جيش الشمال لأنها تعلم أن الشيوعيين الكوريين – كغيرهم من أتباع هذا المذهب بين جميع الأمم – يخدمون موسكو ولا يدينون بواجب الولاء لغير الدعوة الشيوعية ، إذ كان الشيوعيون ينكرون العقيدة الوطنية أشد الإنكار ويعتبرونها على رأى كارل ماركس حيلة من حيل رأس المال لاستغلال العمال والفقراء ، فالكورى الشيوعى قبل كل شىء جندى من جنود الكرملين .

أما الولايات المتحدة فلم تأمن أهل الجنوب كما كان الروسيون يأمنون أهل الشمال ، لأنها على يقين أن الكوريين الديمقراطيين ينقلبون عليها إذا انتظم لهم جيش مسلح على الطراز الحديث ، إيمانًا منهم بواجب الوطنية وحق الاستقلال ، فهم ينهزمون اليوم أمام أهل الشمال لما بينهم من الفارق فى أهبة الجند

والسلاح ، ولا ينهزمون لاختلاف بينهم فى صفات الشجاعة والسخط على العدوان .

وخير ما نتمناه للأمة الكورية العريقة أن تنجلى هذه الغاشية عن أمة موحدة تساهم فى الحضارة الإنسانية بحصتها وتملك زمامها بأيديها ، فلا تلقى به طواعية إلى أيدى الروس ولا إلى أيدى الأمريكيين .

obeikandl.com

من ذكريات حافظ

قبل ثمانى عشرة سنة ، وفى مثل هذا اليوم على التقريب ، يوم الخميس الحادى والعشرين من شهو يوليو سنة ١٩٣٢ ، دق جرس التليفون بمسكنى فسمعت صوت السيد عبد الحميد البنان رحمه الله ينشج وهو يقول بعد جهد :

– حافظ إبراهيم .. البركة فيك !

وحاولت أن أعرف منه مزيدًا من تفصيلات الخبر ، فلم يستطع أن يزيد على ذكر موعد التشييع ومكانه ، لاختلاج صوته بالبكاء ، فأشفقت أن أرهقه بالسؤال ، وقنعت منه بما قال .

كانت الصلة قد انعقدت بينى وبين حافظ فى تلك الأيام ، وكنت أزوره مع المازنى وصدقى فى حلوان ، وكان يزورنى كثيرًا حين انتقل إلى منزله بالزيتون ، وليس أسرع من حافظ إلى كسب صداقة إنسان ، فهو من « الشخصيات » التى لا تحجزها المعالم والحدود ، ولا ترى فارقًا عنده بين من يعرفه لساعة ومن يعرفه لسنوات : كلفة ترتفع ومزاح ينطلق وصراحة يلتقى فيها السر والعلانية على سواء .

لأول مرة بعد اتصال المعرفة بينى وبينه أحس الوجوم عند سماع اسمه ، وذلك هو المعنى الذى بدر إلى خاطرى حين نظمت الأبيات التى رثيته بها وألقيتها على ضريحه ، وفى مطلعها أقول :

أبكـاء وحـافظ فى مكـان تلك إحدى عجائب الزمان

ولكن الفكاهة ، على ما يظهر ، تأبى إلا أن تقترن بصاحبها فى كل سياق

حتى سياق الموت ، فجاءتنا من حيث لا نحتسب فى ذلك النهار . كانت فى الدار التى أسكنها سيدة عجوز تناهز السبعين تنتمى إلى أسرة شرقية وتتكلم الفرنسية والإنجليزية لأنها تعلمت وتربت بالمدارس الأوربية ، وكانت تقضى وقتها كله بين قراءة الصحف وثرثرة الكلام ، فإذا صعدت إلى مسكنى يومًا للتحدث فى التليفون فأهون الشرين فى ذلك اليوم أن تشغل التليفون ساعات ، وأكبر الشرين أن تشغلنى أنا باللغط فى كل موضوع من الموضوعات العامة أو الخاصة بدلا من التليفون .

ويشاء القدر أن تصعد إلى مسكنى يوم وفاة حافظ ، وعندى صديق مشهور بسهواته الجبارة ، لا يسهو عنها طرفة عين !

قالت : البقية فى حياتك يا أستاذ !

فغاب عنى أنها تعزينى فى حافظ ، ولم يخطر لى أنها سمعت بالخبر أو قرأته : فقلت خيرًا يامدام : فيمن العزاء ؟

قالت مدهوشة : عجبًا ! ألم تسمع ؟ شاعر كبير مات فى مصر .. ما اسمه ما اسمه يا فلانة ؟ ! وراحت تسأل نفسها لحظة وتحاول أن تجيب :

فأدركتها قبل أن تتذكر وتستطرد ، ولا نهاية لاستطرادها فى هذا المقام ولا فى أى مقام ، وقلت :

إنه حافظ إبراهيم !

قالت : نعم نعم . حافظ .. هل هو الشاعر المتوج Poet Laureate

قلت : لا . ولكنه صناجة الأمة The National bard.

فعادت تسأل : أكان شابًا أم شيخًا ؟

فبدا لى أننا فى بداية اللغط الذى لا تعرف له نهاية ، وأن موعد التشييع سينقضى قبل أن ألبس ملابسى وأتوجه إلى مكانه ، وأخذت أفكر فى طريقة لاقتضاب الكلام على عجل ، فإذا بصديقى صاحب السهوات يريحنى من العناء بغير تفكير ، ويجيب السيدة العجوز قائلا :

كان كبيرًا جدًّا . فقد أحيل إلى المعاش وبلغ الستين !!

فانتفضت متشائمة وأحست كأن الصديق يستكثر عليها أن تعيش وهى قد

ناهزت السبعين ، فنهضت مولية وبادرت بالخروج وأخذت تردد غير مرة : وهل يقال على ابن الستين إنه كبير .. كبير جدًا ؟ .. إنه شباب ، إن الستين شباب الشيخوخة أيها العزيز !

وكانت سهوة من الصديق أجدى من التفكير ، فأنسانا الضحك مقام الوجوم والرثاء .

عدت إلى نفسى أسألها : لماذا وصفت حافظًا بأنه صناجة الأمة حين أشارت السيدة الثرثارة إلى الشاعر المتوج ؟ أترانى أردت أن أختم الحديث بكلمة تفهمها ويحسن السكوت عليها ؟

نعم هو ذاك ما أردت فى تلك اللحظة ولا شك ، ولكننى علمت بعد الرواية أن حافظًا رحمه الله لا يوصف بكلمة هى أصدق من تلك الكلمة بجميع معانيها ، لأن جميع معانيها وخصائصها تنطبق عليه .

كان قوى الحافظة يعتمد على حافظته فى حفظ شعره وحفظ المئات من القصائد العربية ، فلا تجد فى بيته ورقة يدون عليها شيئا من كلامه أو كلام غيره ، ومن ثم ضاع الكثير من قصائده التى لم ينشرها ، ولم يبق منها اليوم إلا أبيات يذكرها بعض جلسائه ومريديه .

وكان حسن الإنشاد ، بل رائع الإنشاد ، يلقى شعره بصوت جهورى عميق ، ولهجة هى أقرب إلى الترتيل منها إلى مجرد الإلقاء ، ويستعيده السامعون أبياته ، ثم يستعيدونه القصيدة بعد الفراغ منها ، طربًا للصوت والإنشاد ، قبل أن يمعن فى نفوسهم الإعجاب بالمعانى والكلمات .

وكان يختار كلماته بجرسها وإيقاعها وموقعها ، كأنه يضع ألحانًا ولا يضع كلمات .

قال لى مرة إنه يريد كلمة تمثل طلقة المدفع أو هجمة الماء من فوهة ، وتطلق على السعال المتقطع من فم مريضة يتكاثر عليه ، وكان يومئذ يترجم الجزء الثانى من البؤساء .

فقلت له إن كلمة « الدفاع » بضم الدال وتشديد الفاء تؤدى هذا المعنى .

فأوشك أن يثب من مكانه لموافقة الكلمة لما أراد .

وقال لى مرة أخرى : هل عندك كلمة توضع فى المكان الخالى من هذا البيت :

واجعـل ... قبل خـطوك رائدا لا تحسبن الغمـر كـالضحضـاح

فقلت له : واجعل عيانك قبل خطوك ..

فقال : نعم هى ما أردت ، وهى الكلمة التى كانت تحوم على أذنى وأعجب لماذا تفلت منى !

وهكذا كان يتخير الكلمات ، بل النغمات .

وقلت له ذات يوم مازحًا : ما أجدرك أن تملأ بشعرك « أسطوانات » ولا تطبعه فى صفحات .

فقال على الأثر : وأغنيه على تخت العقاد !

* * *

وقد كان أنيس المحضر ظريف المنادمة ، تسرع البشاشة إلى وجه من يراه .

وهذه كلها صفات تلزم الصناجة فى عصر النابغة الذبيانى وما قبله . لأن الحافظة القوية كانت لازمة قبل شيوع الكتابة والطباعة ، والإنشاد الجميل كان لازما فى العهد الذى كان الشعر فيه ضربًا من الغناء ، والمنادمة الظريفة كانت لازمة يوم كان نابغة ذبيان نديمًا للنعمان ، ومقابلة الناس بما يرضيهم ويسرهم كانت لازمة يوم كان الشاعر يعاشر الناس كل يوم ، ولا يلقاهم من وراء كتاب أو فى بوق مذياع .

بل كان الصناجة يعيش من يوم إلى يوم ، وينفق فى ساعة ما يأخذه فى ساعة ، لأنه ينفق كما يكسب من جائزة بعد جائزة ، ورحلة بعد رحلة .

أما فى القرن العشرين فالعجب أن تجتمع كل هذه « اللوازم » التى لا لزوم لها فى شاعر واحد ، ثم يصبح هذا الشاعر صناجة الأمة The National Bard ، كما كان حافظ فى عصر النهضة الوطنية ، وكما عاش جيلًا كاملًا من

مفتتح القرن العشرين إلى السنة الثانية والثلاثين منه ، إذ توفاه الله تلك السنة فى مثل هذا اليوم (سنة ١٩٥١) .

* * *

كان صناجة مصر الذى ينشد لها فتسمع وتطرب وتردد وتستعيد . وكان شعره فى كل مسمع ، واسمه على كل لسان .

ثم مضى فلم يذكره أحد لمناسبة ولا لغير مناسبة ، فلماذا انقطع الحديث عنه حيث كان ينبغى أن يتصل بغير انقطاع ؟

كل تعليل لهذا السكوت عن الرجل ، من جانب الأسباب الأدبية أو القومية أو السياسية ، لا يؤدى إلى الحقيقة فى رأى الذين يأتون بعدنا بخمسين سنة .

ولهذا وجب بيان العلة التى تنفى كل حيرة .

والعلة التى تنفى هذه الحيرة أن بيئات الفن والنشر فى هذا الزمن ينبث فيها أنصاف الرجال هنا وهناك ، وأنها عصبية على التفاهم كعصبية الماسونية ، وليس أشد « عصبية » ممن يتعصبون لدفع الوصمة والتشابه فى الإحنة ، فإن الفضيلة منافسة بين نظراء ، والوصمة جامعة بين أشباه .

وإن كان رجلاً كحافظ لخليق أن يضيع فى هذه الماسونية ، وأنك أيها القارئ لوشيك أن تسمع الاحتجاج الشديد ، بل العنيف على هذا التعليل .

فإذا سمعته فقل كلما سمعته : لعل هذا من ذاك .

الصناجة فى العصر الحديث

أردنا بكلمة الصناجة فى مقال الأسبوع الماضى أن نقابل بها المعنى الذى يفهمه قارئ الآداب الأوربية من كلمة Bard ومرادفاتها ، وهى كلمات تدل على وظيفة اجتماعية « فنية » عرفت فى غرب أوربة وشمالها منذ أكثر من مائتى سنة قبل الميلاد .

وكانوا يشترطون فى صاحب هذه الوظيفة أن يكون من ذوى الهبات الأدبية والصوتية ، وأن يكون قادرًا على النظم والإنشاد والتأثير بحضره وصوته وطريقة إلقائه فى الجماعات والجيوش ، لأنه كان يتغنى بسير الأبطال ووقائع الأمم ويثير نخوة القتال فى ساحات الحرب ، ويتقدم الجيوش أحيانًا بقيثارته ليذكى فى صدور الفرسان والجند نيران الحمية والشجاعة ، ويذكرهم بمصارع الغابرين الذين خلدتهم أناشيد الجهاد والفداء ، وقد حفظ الإيرلنديون قيثارة الصناجة الذى قتل وهو يستحث قومه على الثبات فى حرب الدانيين ، واختاروا لها متحف اللاهوت بجامعة دبلن ؛ للدلالة على ما يحيطون به ذكراه من الإكرام والتقديس .

ولا ينطبق وصف الصناجة بهذا المعنى فى جملته على أحد من شعرائنا المحدثين كما ينطبق على حافظ إبراهيم ، فمن المصادفات التى اتفقت له أنه كان جنديًا وكان منشدًا حسن الإنشاد والإيقاع ، وكان مسجلاً للسير والوقائع ، كثير النظم فى حوادث النهضة والجهاد .

أما كلمة الصناجة فى اللغة العربية فقد أطلقت على الأعشى واختلف المؤرخون فى سبب إطلاقها عليه ، ولكنهم لم يذكروا سببًا واحدًا يسلم من

الاعتراض والتشكيك .

فمما قيل إنه لُقِّبَ بصناجة العرب لجودة شعره وجلبته ، ولكنه لم يكن بالشاعر الوحيد الذى أثرت عنه جودة الشعر وفخامة الأسلوب فى زمانه ، أو قبل زمانه .

وقيل إنه لُقب بصناجة العرب لأنه أول من ذكر الصنج فى شعره حيث قال :

ومستجيب لصوت الصنج تسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل

ولكنه ذكر كثيرًا من أدوات الغناء ولم يذكر الصنج وحده ، ومنها الناى والبربط و « الون » وهو معزف وترى يشبه العود ، وموقع هذه الكلمة من الأذن أغرب من موقع « الصنج » وأدعى إلى الإغراء بالتلقيب .

وقيل إنه لُقب بالصناجة لأنه كان يتغنى بشعره ، ولكن الشعر كله كان « إنشادًا » فى الجاهلية ولم يزل رواته يقولون عن الشاعر إنه أنشد كما يقول رواة الأوربيين عن الشعر القديم .

ومن طريف ما يروى عنه أن كسرى ملك الفرس سمعه فقيل له إنه « مغنى العرب » وإنه يقول :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بى من سقم وما بى معشق

فقال : إذن هذا لص . لأن اللص هو الذى يسهر الليل لغير عشق ولا علة .

فليس فى هذه الأسباب كلها سبب واحد يفرده باللقب الذى أطلقوه عليه ، ولعلهم أطلقوه عليه لهذه الأسباب كلها مجتمعات ، فقد كان طروبًا مطربًا ، وكان يتغنى ويسمع الغناء ، وكان يرحل إلى بلاد فارس حيث يستمع إلى أناشيدهم ويغنيهم ، فيقولون عنه إنه مغنى العرب .

وقد عاش إلى الزمن الذى انتشرت فيه أدوات الغناء الفارسية بين الحيرة واليمن والمدينة ومكة ، ولم يكن للصناجة وجود فى فرق الغناء التى شاعت قبل عصر الأعشى بالجزيرة العربية ، وإنما كان غناؤهم كما قال أبو الفرج « جاريًا مجرى الإنشاد إلا أنه يقع بتطريب وترجيع يسير ورفع للصوت » .

فإذا اتفقت هذه الأسباب معًا فى وقت واحد ، فمن الجائز أنها تصلح لتلقيب شاعر فرد بلقب الصناجة مع اشتراك شعراء العرب عامة فى الإنشاد .

ولهذا أردنا أن نطلق الصناجة على كل شاعر منشد من الجاهليين وهم فيما عدا مزية الإنشاد ينافحون عن القبيلة ويذكرون مفاخرها ويؤدون لها وظيفة كوظيفة نظرائهم الأقدمين فى الآداب الأوربية ، فكل شاعر منشد صناجة على هذا الاعتبار .

* * *

ذلك فى الآداب القديمة بين عربية وأوربية ، فهل بقى للشاعر الصناجة مكان فى الأدب الحديث بعد شيوع المطبعة والكتاب ؟

لم يكن بين الشاعر والصناجة تفاوت على الإطلاق عند الأقدمين بغير استثناء أحد من شعرائهم المشهورين ..

فكان هوميروس أكبر شعراء اليونان منشدًا يتغنى بقصائده على قيثارته ، وكان جميع المنشدين شعراء يؤلفون ما ينشدون .

إلا أنهم فى عصر من العصور فرقوا بين المنشدين فى القيمة الفنية والمنزلة الأدبية ، فكان المنشد الذى يتغنى بالمآثر القومية أعظم من المنشد الذى يقصر كلامه على مدائح المحسنين إليه وإن كانوا من الأبطال ومشاهير الفرسان ، وكان المنشد الذى يتغنى بمآثر البطولة عامة أعظم من المنشد الذى يغنى الناس للتسلية ويروى لهم أحاديث العشاق والحسان .

ثم هبطت قيمة المنشد زمنًا حين ظهر فى المنشدين من يغنى كلام غيره ولا يحسن ابتكار كلام من عنده ، فشاعت التفرقة بين الشاعر الخالق وبين الراوية المنشد أو الصناجة الذى يحفظ كلام غيره ولا يبدع قصائده من عمل قريحته وخياله ، ولا تزال التفرقة بين خلق الكلام وإنشاده ملحوظة فى جذور الألفاظ التى تعبر عن المعنيين عند الأوربيين ، فكلمة Poet تفيد معنى الخلق ، وكلمة Bard تفيد معنى الغناء ولا تستلزم الإبداع والابتكار .

وقد حرم بعض الشعوب وظيفة الإنشاد لأنها تثير الفتنة والشقاق كلما ردد المنشدون أخبار القتال بين القبائل القديمة بعد انقضاء عهودها ونسيان تراتها

وأحقادها ، وكان للمنشدين فى بلادنا المصرية شأن كهذا يوم كان المسمعون إليهم فى القهوات يتعصبون لبنى هلال أو لبنى زناتة ، ويتشيعون للزير سالم أو لأعدائه فى حرب البسوس ، فمنعهم ولاة الأمر حيناً كما منعهم ولاة الأمر فى بعض البلاد الأوربية .

ثم ظهرت المطبعة فأوشكت أن تجسم الفارق بين الشعراء والمنشدين ، فانتهى القرن الثامن عشر والشعر على الأغلب الأعم كلام مطبوع غير مسموع ، والإنشاد غناء يطوف به أصحابه بين القرى على الخصوص ، ويؤجرون عليه كما يؤجر المطرب على الغناء .

وقد استخدم اللورد بيرون أشهر شعراء الإنجليز فى القرن التاسع عشر هذا الفارق بينه وبين منافسيه على سبيل المغالطة وانتحال الأسباب المعتسفة للتهوين والتحقير ، فأطلق على بعض الشعراء لقب المنشدين ولم يرد به أنهم يتغنون بقصائدهم وأنه يترفع عن الغناء بالقصيد ، وإنما أراد به أنهم يبيعون شعرهم بالمال كما يفعل المنشدون الطوافون ، وإنما كانوا يبيعون الشعر للطابعين وأصحاب المجلات ولا يأخذون المال أجرًا لإنشاد القصيد فى القهوات والأسواق .

وقد كان بيرون يستغنى عن بيع شعره للطابعين بما ورثه من مال أبيه ، وكان معتسفًا كما قدمنا فى معابة منافسية بما لا يعاب ، لأن الكسب من تأليف الكتب منظومها ومنثورها مورد من أشرف الموارد فى كل أمة ، وهو أشرف من العيش برزق لم يتعب منفقوه فى جمعه ، فيشاء القدر أن يجزى الشاعر المتعالى بغناه على تعاليه بغير الحق وعلى غير شرعة المروءة فتنفد التركة التى كان يعتز بها بين نظرائه ، ولا يبقى له مورد يعيش منه غير المورد الذى عاش منه أولئك النظراء .. ويبيع شعره كله ، ما نظمه وما سينظمه ، لشركة « جون مورى » بنحو عشرين ألف جنيه ! ..

* * *

هل يؤخذ من هذا أن المطبعة قضت آخر القضاء على الشاعر المنشد ولم تدع بعد اليوم من مجال لغير الكتاب والديوان ؟ .

أحسب أن هذا الظن كان خليقًا أن يسبق إلى الخاطر قبل ثلاثين سنة ، أو قبل عصر الإذاعة التى تخاطب الأسماع بغير حاجة إلى القراءة والنظر فى الأوراق .

أما اليوم فقد يعود عصر الشاعر المنشد سيرته الأولى فى نشأة الآداب الباكرة ، فينظم الشاعر وينشد ، أو ينظم ويكل الإنشاد إلى راويته ، كما فعل الشعراء الذين لم يرزقوا نعمة الصوت الحسن فى الزمن القديم .

وقد يرجع عهد الصناجة إلى مصر بعد حافظ إبراهيم ، ومنا من حسبه خاتمة المنشدين ، لما اتفق له من مزايا الصناجة جميعها فى غير أوان .

وإذا لم يكن بد من حصر الصفات التى عرف بها الصناجة القديم ، فمن تلك الصفات – ولا نكران – أن الصناجة كان يتكسب بشعره ، وأن حافظًا رحمه الله كان يقبل الهدايا والأعطية من حماته ورعاته ، وكلهم كرام الأيدى كرام السجايا كرام البيوت .

فإن كان لابد من معذرة للضرورة التى لا محيد عنها ، فالعذر الذى اغتفر لحافظ ضرورته أنه قد أعطى كما أخذ ، بل لعله لم يأخذ لنفسه إلا بعض ما أسداه إلى غيره ، ولو عاش حيث تنفق سوق الشعر فى الكتاب والمجلة ، لأعطى ولم يقبل العطاء .